بلاغة أفعال الكلام في الخطاب الموجّه إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– في القرآن الكريم– دراسة في سورة الأنعام–

أ/ زروقي أسماء
جامعة بسكرة

الملخص :

رغم ما قيل عن بلاغة الأفعال الكلامية في الخطاب القرآني، إلا أن هذا البحث لا يزال بكرا، فلم تأزف تلك الدراسات بعد من النضوج والاكتمال، كون الخطاب القرآني خطابا معجزا، لا يصل الباحث إلى أغواره وأفقه مهما أوتي من علم وتبحّر في التفسير والتأويل. لذلك سنحاول في هذا المقال الوقوف على دراسة بلاغة الأفعال الكلامية في الخطاب القرآني، ونخص بالذكر الخطاب الموجه إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– في سورة "الأنعام"، سعيا إلى إظهار قوة الفعل الإنجازي، ووقوفا على البعد الحجاجي للملفوظات فيه.

Abstract :

Nevertheless what in summer said on the " rhetoric of the acts of the words in the Koranic speech ". But this search(research) remains premature, All the studies made on this theme have not arrived at a mature and complete approach yet, seen that the Koranic speech is a sacred speech the researcher of which does not arrive at his depths. About is his (her,its) knowledge. It is difficult to explain or to interpret this Koranic speech.

Through this article, we would try to stop on a study the rhetoric of the acts of the words in the Koranic speech, particularly the speech intended for the "prophet Mouhamed" in the Koranic verse "Al ANAAM".

المنارة للاستشارات

مقدمة

ما من شك أن القرآن الكريم نزل على محمد صلى الله عليه وسلم، يخاطبه ليرسخ تعاليم جديدة أراد أن يغير بها ما انتشر من سيء العادات، وقبيح الأعمال، وكان الهدف أن تكون الحياة الإسلامية بالتعاليم القرآنية في العبادات والمعاملات ومختلف التشريعات، ليتحقق نموذج من السلوك الفردي والجماعي والدولي[1].

ولما كان القرآن الكريم معجزة النبي صلى الله عليه وسلم اللغوية لتثبيت دعوته وإقناع الناس بالتخلي عن معتقداتهم الخاطئة، والإيمان بالعقيدة الجديدة، فإنّه يمكن رصد الظواهر التداولية في نصوصه، ونخص بالذكر النصوص التي جاء فيها الخطاب موجها للنبي صلى الله عليه وسلم.

فالتداولية في أبسط تعريفاتها هي: «دراسة البعد الاستعمالي للغة وما ينجرّ عنه من إنجاز كلامي» [2]، وتكمن وظيفة التداولية كما ذهبت إلى ذلك "أوركيوني" (Orecchioni) «في استخلاص العمليات التي تمكن الكلام من التجذر في إطاره الذي يشكل الثلاثية الآتية: المرسل، المتلقي، الوضعية التبليغية، وإنّ أي تحليل تداولي يستلزم بالضرورة: التحديد الضمني للسياق الذي تؤول فيه الجملة »[3].

إن التداولية لم تصبح مجالا يعتد به في الدرس اللغوي المعاصر إلا في العقد السابع من القرن العشرين، بعد أن قام على تطويرها ثلاثة من فلاسفة اللغة المنتمين إلى التراث الفلسفي هم: أوستين (Austin) و"سيرل" (Searle) و"جرايس" (Grise)، وعلى هذا نجد هؤلاء الفلاسفة قد «تبنوا مجموعة من المفاهيم ذات البعد التداولي وفي مقدمتها مفهوم أفعال الكلام »[4]؛ إذ «تعد الأفعال الكلامية مجالا من مجالات البحث اللساني التداولي»[5]، فالفعل الكلامي الإنجازي الذي تنطلق منه النظرية هو الحدث " act" وليس الفعل "Verb" الذي يعدّ مؤشرا أو وسيلة لغوية لإنجاز الحدث، ومنه جاءت تسمية الفعل الكلامي بـ" Speech act"[6].

وأكدّ "أوستين" (Austin) على أن استعمال جملة ما من قبل المتكلم تتضمن على العموم ثلاثة أفعال[7]:

1- **الفعل اللفظي "Locutionary act** ": ويتكون من النطق بأصوات لغوية يتضمنها تركيب نحوي صحيح ينتج عنه معنى محدد، هو المعنى الحرفي أو الأصلي المفهومُ من التركيب، وله مرجع يحيل إليه[8].

المنارة للاستشارات

2- **الفعل الغرضي أو الإنجازي "illicutionary act"**: ويقصد به ما يؤديه الفعل اللفظي من وظيفة في الاستعمال كالوعد، والتحذير، والأمر، والنصح... [9] .

مما يعني أنه:« يحصل بالتعبير عن قصد المتكلم من أدائه: يعدُ، يخبر، يتعجب، ينذر»[10].

3- **الفعل التأثيري "perlocutionary act"**:ويقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في السامع[11]، كأن (يرعبه، يجعله ينفعل...) [12].

أما "جون سيرل" (John Searl) فقد عدّل التقسيم الذي قدّمه "أوستين" (Austin) للأفعال الكلامية ، فجعله أربعة أقسام؛ حيث أبقى على الفعلين الإنجازي والتأثيري، أما الآخران فهما:

1- **الفعل النطقي "Utterence act"**: ويتمثل في نطقك الصوتي للألفاظ على نسق نحوي ومعجمي صحيح.

2- **الفعل القضوي "Propositional act"**:ويشمل المتحدّث عنه أو المرجع "reference"، والمتحدّث به أو الخبر"Predication"، ونصّ على أن الفعل القضوي لا يقع وحده، بل يستخدم دائما مع فعل إنجازي في إطار كلامي مركّب، لأنك لا تستطيع أن تنطق بفعل قضوي دون أن يكون لك مقصد من نطقه[13].

وبالعودة إلى الخطاب القرآني، فلا شك أنه خطاب حجاجي، فللحجاج معنيان: لغوي واصطلاحي.

1- **الحجاج لغة:** هو حسب ما يقول "ابن منظور" في "لسان العرب": «الحج: القصد، حجّ إلينا فلانٌ؛ أي قدم، وحجّه يحجّه حجًّا؛ أي قصده»[14].

ويأتي الحجاج بمعنى البرهان والاستدلال بدحض حجة الخصم، يقول "ابن منظور": « يقال حاججته، أحاجه حجاجا ومحاجّة حتى حججته؛ أي غلبته بالحجج التي أدليت بها»[15].

2- **الحجاج اصطلاحا:** يقول "باتريك شارودو" (patrik charaudeau) : « الحجاج حاصل نصّي من مكونات مختلفة، تتعلق بمقام ذي هدف إقناعي»[16].

المنارة للاستشارات

ويمكن تعريفه بأنه: «فعالية تداولية جدلية، ويرتبط أشد الارتباط بعناصر المقام، فكلما وقفنا على لفظ الحجاج تسارعت إلى أذهاننا دلالته على معنى التفاعل؛ فهو أصل في كل تفاعل بين طرفي الخطاب، وقد يدل الحجاج بمعناه العادي على طريقة عرض الحجج وتقديمها، ويستهدف المحاجج التأثير في المتلقي، فإن تمّ له ذلك، كان الخطاب ناجحا فعّالا، والمتكلم (المحاجج) ليس هدفه الإفهام فحسب، بل يمتد هدفه، ليشمل التأثير في الملتقى (المحجوج أو المحاجَج) قصد توجيه موقفه وجهة محددة؛ حيث ينبغي إقناعه بأمر ما، أو تغيير قناعته تجاه سلوك أو موقف محدد »[17].

والسؤال الذي يطرح بعد هذا التقديم عن التداولية والحجاج: أين تكمن هذه المظاهر التداولية والحجاجية في لغة القرآن الكريم؟، وما هي بلاغة أفعال الكلام في الخطاب الموجه للنبي صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم، ونخص بالذكر ما جاء في سورة الأنعام؟، مع الوقوف على مدى تأثير الخطاب الحجاجي و الإقناعي على النبي الكريم صلى الله عليه وسلم؟

قبل الشروع في الجانب التطبيقي على القرآن الكريم لابدّ أن ننوه إلى أن الخطاب بـ الفعل الإنجازي "**قل**" في القرآن الكريم موجه للنبي صلى الله عليه وسلم– لا غير-، يلقنه ربه تعالى حجته على خصمه ويأمره فيها بتبليغ وحيه: «ولتصدير الآيات في القرآن بـ "قل" مغزى لطيف يفهمه العربي بالسليقة، وهو توجيه الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم، وتعليمه ما ينبغي أن يقول (...) لذلك تكررت "قل" أكثر من ثلاثمائة مرة في القرآن الكريم، ليكون القارئ على ذكر من أن محمدا صلى الله عليه وسلم لا دخل له في الوحي، فلا يصوغه بلفظه ولا يلقيه بكلامه، وإنّما يُلقى إليه الخطاب إلقاء، فهو مخاطب لا متكلم، حاكٍ ما يسمعه لا معبّر عن شيء يحول في نفسه»[18].

أما من حيث المعنى والدلالة «فإن الخطاب الموجه للنبي صلى الله عليه وسلم بلفظ (قل) أو بغيره على أقسام:

أ– فمنه ما هو خاص به لا يشاركه أحد، كقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ (الأعراف/158).

المنارة للاستشارات

ب- ومنه ما يكون عامًّا له ولغيره، فيدخل في الخطاب غيره- لما في الآية من توجيه في محاجة الخصوم أو لما فيها من تكاليف مشتركة نحو: قوله تعالى: ﴿ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ (البقرة/91)، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ﴾» (آل عمران/84).

ج- ومنه ما يكون الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلّم، وليس فيه دليل على خصوصيته ولا عمومه، فيكون خاصًّا في لفظه عاما في حكمه، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ ﴾ (الزمر/11) »[19].

وسأخص بالدراسة من ذلك: الخطاب الموجه للنبي صلى الله عليه وسلم (في سورة الأنعام) ، مركزة على نوع معين من أنواع الخطاب وهو الخطاب الخاص؛ أي الخطاب الموجه للنبي خاصة، وهو يسليه ويخفف عنه وطأ التكذيب الذي لاقاه من قومه.

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِئ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (الأنعام/ 33-35).

ففي هذه الآيات يتجه الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم، يطيب الله سبحانه وتعالى خاطره في أوله مما يلاقيه من تكذيب[20]، بقوله: «**قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون**»، فهو ملفوظ تقريري مؤكد بثلاث مؤكدات" قد"، و" إنّ"، و" اللّام"، قوته الإلزامية تكمن في تطييب خاطره وطمأنته، وهو استئناف ابتدائي قصدت به تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم، وأمره

المنارة للاستشارات

بالصبر ووعده بالنصر، وتيئيسه من إيمان المتغالين في الكفر، ووعده بإيمان فرق منهم بقوله: «**ولو شاء لجمعهم على الهدى**» إلى قوله: «**يسمعون**».

و"قد" مؤكد، وهو تحقيق للخبر الفعلي، فهو في تحقيق الجملة الفعلية بمنزلة" إنّ" في تحقيق الجملة الاسمية[21]، فالحرف "قد" مختص بالدخول على الأفعال المتصرفة الخبرية المثبتة المجرّدة من ناصب وجازم وحرف تنفيس، ومعنى التحقيق ملازم له، والأصح أنه كذلك سواء كان مدخلها ماضيا أو مضارعا، وعند سيبويه "قد" يستعمل مع المضارع للتقليل، لكن بقرينة وليست بدلالة أصلية، لذلك فلا فرق بين دخول" قد" على الفعل الماضي ودخوله على المضارع في إفادة تحقيق الحصول[22].

ففي معنى" قد" للتقليل ضربان: أحدهما: تقليل متعلقه(*)، نحو قوله تعالى: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾[23] ؛ أي: ما هم عليه هو أقل معلوماته سبحانه[24]، وفي معنى" قد" أيضا تكثير، قال "الزمخشري" في قوله تعالى: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾[25] ؛ أي ربما نرى، معناه كثرة الرؤية[26].

فإذا كانت الآية «**قد نعلم إنّه ليحزنك**» على تقدير «قد» للتقليل، يكون المعنى تقليل متعلق الفعل؛ أي: حزنك يا محمد عما يقولون؛ وهو أقل شيء يعلمه الله، أما إذا كانت على تفسير "الزمخشري"، فإن معناه تكثير علم الله، أي كثيرا ما نعلم يا محمد ما يحزنك من إعراضهم واستهزائهم.

ف" قد" مع الفعل المضارع في الآية هو كناية تنشأ عن التعرض لتحقيق فعل ليس من شأنه أن يشك السامع في أنه يقع، إضافة إلى تأكيد الملفوظ بـ" إنّ" و" اللام" «**إنه ليحزنك**»، والمراد بقوله «**الذي يقولون**»: أقوالهم الدالة على عدم تصديقهم الرسول– صلى الله عليه وسلم–، فعدل عن ذكر اسم التكذيب ونحوه إلى اسم الموصول وصلته تنزيها للرسول– عليه الصلاة والسلام– عن ذكر هذا اللفظ الشنيع في جانبه تلطفا معه[27].

وقوله:﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾: فيه تسلية، وكفى بها تسلية، «**فإنهم لا يكذبونك**» ملفوظ تقريري مؤكد بـ" إنّ" قوته الإنجازية تكمن في التعليل وتوضيح محل تكذيبهم وإنكارهم وجحودهم. والمضمون القضوي للملفوظ يتمثل في التقدير: «فإن كان يحزنك ذلك لأجل التكذيب فإنهم لا يكذبونك»[28].

المنارة للاستشارات

قال "أبو حيان الأندلسي" في تفسير الآية:«(لا يكذّبونك) تكذيبا يضرك؛ لأنك لست بكاذب،(...)، ولا يراد بقوله: (لا يكذّبونك) خصوصية تكذيبه هو؛ بل المعنى أنهم ينكرون دلالة المعجزة على الصدق مطلقا، فالمعنى (لا يكذّبونك) على التعيين، بل يكذّبون جميع الأنبياء والرسل، وقال قتادة والسدّي: لا يكذّبونك بحجة وإنما هو تكذيب عناد وبهت، (...)، لا يقولون إنك كاذب لعلمهم بصدقك، ولكن يكذّبون ما جئت به. (...)، لا يكذبونك في السر، ولكن يكذّبونك في العلانية عداوة»[29].

وعدل عن الإضمار إلى قوله:«**ولكنّ الظالمين**» ذما للظالمين وإعلاما بأن شأنه وشأن الظالم الجحد بالحجة، وتسجيلا عليهم بأن الظلم سجيتهم[30]؛ فالملفوظ يحيل إلى مقتضى الحال وهو أن الجاحد بالحجة ظالم.

والخطاب في قوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (الأنعام/ 34).

يأتي ليخفف عن النبي وطأ ذلك التكذيب والأذى، فهي «كلمات للذكرى وللتسلية والمواساة والتأسية... وهي ترسم للدعاة إلى الله من بعد رسوله صلى الله عليه وسلم طريقهم واضحا ودورهم محدّدا، كما ترسم لهم متاعب الطريق وعقباته، ثم ما ينتظرهم بعد ذلك كله في نهاية الطريق...» [31].

وقوله:«**ولقد كذّبت رسل من قبلك**» ملفوظ تقريري مؤكد بمؤكدين" اللام"، و" قد"، وقوته الإلزامية تكمن في التذكير والمواساة؛ أي: مواساة النبي والتخفيف عنه وذلك بتذكيره بالرسل والأنبياء، وما لاقوه جراء تكذيبهم وإيذائهم من طرف أقوامهم.

وقوله: «**فصبروا على ما كذّبوا وأوذوا**» ملفوظ تقريري، تكمن قوته الإلزامية في تحدي الكافرين والعزم على إتمام الطريق، فالملفوظ يؤدي بعدا حجاجيا وإقناعيا في الآية؛ إذ أراد الله سبحانه وتعالى من خلاله أن يقنع نبيه أن طريق الرسل حُفّ بالمكاره وجهل الجاهلين وتكذيب المكذبين، وهذا يقوم مقام الدليل والحجة المفضية إلى نتيجة وهي المطلوب من النبي الكريم صلى الله عليه وسلم التزوّد بالصبر والتحمل.

المنارة للاستشارات

وعطف«**أوذوا**» على«**كذّبوا**»، لبعد حجاجي وإقناعي أيضا؛ إذ فيه عطف الأعم على الأخص، والأذى أعمُّ من التكذيب؛ لأن الأذى هو ما يسوء ولو إساءة ما، حيث يقول تعالى:﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ﴾[32]. ويطلق على الشديد[33]؛ أي إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد كذّب فالرسل كذبت وأوذيت فصبرت على ذلك؛ فمقتضى القول: «فاصبر كما صبروا»[34]، فهذه تعد حجة مقدمة للنبي صلى الله عليه وسلم، لتزيد عزيمته للصبر ومقارعة الضالين والمكذبين.

و قوله: «**حتى أتاهم نصرنا**» ملفوظ تقريري، تكمن قوته في تحقيق الوعد وهو النصر الذي ينشده كل صابر محتسب ولو بعد حين، فالملفوظ « مبدوء بـ "حتى" الابتدائية أفادت غاية ما قبلها، وهو التكذيب والأذى والصبر عليهما» [35]، وربط الملفوظين بالرابط الحجاجي "حتى"، وهذه تترجم في اللغة الفرنسية بأداتين هما:(même) و(jusqu'à)، وهي من الروابط التي تربط حجتين لهما التوجه الحجاجي ذاته، وتخدمان نتيجة واحدة والحجة التي تليها هي الحجة الأقوى، وهو ما قصده النحاة بقولهم: «أن يكون ما بعدها غاية لما قبلها»[36]، وغالبا ما تكون "حتى" الحجاجية، عاطفة و جارّة، كما تستعمل في سياقات زمانية ومكانية كقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٥﴾[37] . و«العلاقة بين" حتى" الحجاجية و "حتى" الزمانية المكانية تتمثل في تعبيرهما عن الغاية وتدل على التعليل أيضا»[38].

وقد استعملت "حتى" في الآية للحجاج والإقناع، أي: أنها حجاجية دالة على الغاية، والعلاقة الحجاجية التي تضمنتها هي العلاقة التبريرية التعليلية، ويمكن قراءة الملفوظ وتأويليه كما يلي: "لقد صبر الرسل من قبلك على ما كذبوا وأوذوا حتى جاءهم نصرنا"، وهذا يحيل إلى اقتضاء مفاده: "عليك يا محمد الصبر على ما كُذِّبْتَ حتى يأتيك نصرنا".

وفي قوله: «**نصرنا**» «التفات؛ إذ قبله بآيات الله. وبلاغة هذا الالتفات أنّه أضاف النصر إلى الضمير المشعر بالعظمة المتنزل فيه الواحد منزلة الجمع. والنصر مصدر أضيف إلى الفاعل، والمفعول محذوف؛ أي نصرنا إياهم على مكذّبيهم ومؤذيهم»[39].

وقوله: «**ولا مبدّل لكلماته**» ملفوظ تقريري، قوته الإنجازية تكمن في نفي المبدِّل كناية عن نفي التبديل[40]، فالله هو الغالب على أمره فلا يبدل مراده غيره من العاجزين، ثم دعّم الله سبحانه وتعالى هذه الحجج بقوله: «**ولقد جاءك من نبأ المرسلين**» وهو ملفوظ تقريري،

المنارة للاستشارات

مؤكد بمؤكدين اثنين"اللام"، و"قد"، وقوته الإلزامية تكمن في تدعيم الحجج السابقة، والتوكيد على صدق هذا الكتاب الذي ذكر قصص الأنبياء والمرسلين لأخذ العبر واستشفاف المواعظ.

وفي قوله:﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ (الأنعام/ 35).

تسلية ثانية لنبيه الكريم بعد الأولى التي قال فيها: «**فإنهم لا يكذبونك**»، فقوله: «**إن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا..**» فعل خطاب مركب، جزؤه الأول مبدوء بحرف "إنْ" الذي يكثر وروده في الشرط الذي لا يُظَنّ حصوله، للإشارة إلى أن الرسول– عليه الصلاة والسلام– ليس بمظنة ذلك، ولكنه على سبيل الفرض، فحسب تفسير"ابن عاشور": «زيدت«كان» بعد «إنْ» الشرطية، بينها وبين ما هو فعل الشرط في المعنى، ليبقى فعل الشرط على معنى المُضي، فلا تخلصه «إنْ» الشرطية إلى الاستقبال، كما هو شأن أفعال الشروط بعد«إنْ»، فإنّ«كان» لقوة دلالته على المضي لا تقلبه أداة الشرط إلى الاستقبال»[41].

أمّا "أبو حيان الأندلسي" فيرى أنّ: « الشرط جاء معتبرا فيه التبيين والظهور، وهو مستقبل، وعطف عليه الشرط الذي لم يقع، وهو قوله «**فإن استطعت**»، وليس مقصودا وحده بالجواب، فمجموع الشرطين بتأويل الأول لم يقع، بل المجموع مستقبل، وإن كان ظاهرا أحدهما بانفراده واقعا»[42].

والإعراض هو حالة أخرى من عتّوهم غير التكذيب، وقوله: «**إن استطعت**» جواب «**إن كان كبر**» وهو شرط ثان وقع جوابا للشرط الأول[43]. وفي تفاسير أخرى: جواب الشرط محذوف لدلالة المعنى عليه، وتقديره: افعل[44].

ويجب تأكيد الارتباط بين جملة الشرط وجملة الجواب. والذي يغلب على الجملة الشرطية في العربية أن تتشكل وفق التركيب الآتي: أداة شرط+ عبارة الشرط (فعلها ماض)+ عبارة الجواب (فعلها ماض أيضا)، كما يؤكد ذلك الأسلوب القرآني، فقد بني الشرط في لغة القرآن

المنارة للاستشارات

الكريم على الماضي في الغالب وعلى المضارع في القليل[45]. واستعمال الماضي في الشرط يأتي لغرض تحقيق الأشياء وتثبيتها في النفوس وإن دل على الاستقبال[46].

وعندما تحمل عبارة الجواب أسلوبا معينا، كالتوكيد أو النفي أو النهي أو الاستفهام أو الشرط، وجب الاستعانة بالفاء لربطها بعبارة الشرط كقولنا في الشرط - وهو محل دراستنا في الآية الكريمة- : «إذا جاءك فلان فإن استطعت إكرامه فافعل»، فعبارة الجواب أسلوب شرط لزم ربطه بالفاء[47]؛ ففي الآية جاءت جملة الجواب شرطا مقترنا بالفاء، وهو الجزء الثاني لفعل الخطاب المركب مبدوء أيضا بـ" إنْ" الشرطية، جاء بعدها فعل ماضٍ، كما أن الجملة الشرطية الأولى فعلها ماضٍ أيضا" كبر" منسوخ بـ" كان" الماضية.

وتقدير جواب الشرط مما دل عليه الكلام السابق؛ أي "فأتهم بآية فإنهم لا يؤمنون بها". ووجه اختيار ابتغاء نفق في الأرض أو سلّمٍ في السماء، هو أن المشركين سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم آيات من جنس ما في الأرض، كقولهم: ﴿حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعٗا ﴿٩٠﴾﴾[48]، ومن جنس ما في السماء كقولهم: ﴿أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[49]»[50].

فالملفوظ برمته حجة نتيجتها مضمرة وهي من قبيل: هؤلاء القوم معرضون وكافرون مهما فعلت يا محمد، لذلك لا تحزن على ما يقولون ولا على يبيّتون. والمضمر (Le sous-entendu) هو ما يفهم ولا يصرح به[51]، «فطابع المعاني المعرفية هو أنها تعطي أو تقدم أو تساهم بمضامين صريحة مباشرة، في حين تقتضي المعاني المرسلة(أو توحي أو تشير أو تنجز أو تستلزم) مضامين مضمرة غير مباشرة»[52]، إذن فالمضمر هو ما يستنبط من المنطوق، فهو حدث بلاغي مرتبط بمقام القول، فتكون للقول المضمر دلالتان:

دلالة اللفظ التصريحية (denotation) ودلالته الحافة[(*)](connotation)، وقد طابق علماء اللسان بين المضمر والدلالة الحافة، وجعلوا المضمر متروكا أمرُه للمخاطب يتأوّله، فهو بمنزلة اللغز الذي يعرضه المتكلم على السامع طالبا إليه أن يحله [53].

وقوله:«**ولو شاء الله لجمعهم على الهدى**» شرط امتناعي مبتدئ بـ" لو"، وهو فعل خطاب مركب جزؤه الأول «**شاء الله**» ملفوظ تقريري، لكنه منفي بعد دخوله" لو" الامتناعية عليه، وهي هنا" حرف امتناع لامتناع" كما عرفها ابن يعيش[54].

وهي رابطة بين جملتين، فعل الشرط «**شاء**»، وفعل الجواب «**لجمعهم على الهدى**»، وهو الجزء الثاني عن فعل الخطاب المركب، وهو ملفوظ تقريري، مؤكد باللام قوّته الإلزامية تكمن

المنارة للاستشارات

في النفي أيضا أو الامتناع؛ لأن هذا التركيب فعلاه مثبتان، لكن بعد دخول الأداة "لو" عليهما أصبحا منفيين؛ فإذا « دخل هذا الرابط على ثبوتين نفاهما، وإذا دخل على نفيين أثبتهما»[55].

وقوله تعالى:«**فلا تكوننّ من الجاهلين**» تذييل مفرع عما سبق[56]، والتذييل: «تعقيب جملة بجملة مشتملة على معناها للتأكيد»[57]، وهو «أن يذيّل المتكلم كلامه بجملة، يتحقق فيها ما قبله من الكلام»[58]. والتذييل في بعده الحجاجي هو «عدول بالزيادة، والملفوظ المذيل تعبير عن الخاص، والتذييل تعبير عن العام»[59]، وقد جاء هنا فعلا إنجازيا، نهي قوته تكمن في التوجيه؛ أي توجيهه إلى عدم الاكتراث لتكذيبهم وكفرهم، فالمحتوى القضوي للملفوظ مفاده: "فلا يكبر عليك إعراضهم ولا تضق صدرك به، واعلم بأن الله لو شاء لجمعهم على الهدى".

خلاصة المقال:

يُستشفُّ من الدراسة أن الخطاب الموجه للنبي صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم، فيه من اللطف والتسلية الكثير، بما يناسب مقامه الشريف، كيف لا؟ وهو يخاطب خير البشر، الذي وصفه القرآن بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ (القلم/4)، ومن أمثلة ذلك في الآية أنه يعدل عن ذكر اسم التكذيب في قوله: «**الذي يقولون**» إلى اسم الموصول وصلته، تنزيها للرسول صلى الله عليه وسلم ومراعاة للطف معه.

يتبنَّى الخطاب القرآني أسلوب الإقناع بالافتراض، ليقرب المقصود إلى ذهن النبي صلى الله عليه وسلم بغية التأثير فيه وإقناعه من قبيل: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ﴾ (الأنعام/ 35).

يتضح مما سبق أن هناك مستويات مختلفة لقوة كل فعل إنجازي، أو قوة كل ملفوظ تقريري، حسب الوسائل اللغوية الممكن استخدامها في الخطاب الموجه للنبي صلى الله عليه وسلم، لتقوية هذه الأفعال والملفوظات أو إضعافها، ضمن سياقات متعددة، فقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ (الأنعام/ 33)، ملفوظ تقريري مُؤكَّد بأكثر من مُؤَكِّد لغرض إقناعي، وقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ۝٣٥﴾ (الأنعام/ 35)، فعل كلام إنجازي ،

المنارة للاستشارات

نهي قوته تكمن في التوجيه وهو مؤكد بالنون لغرض إقناعي أيضا، بعد أن بيّن له الله عز وجل ما لاقاه الأنبياء قبله من تكذيب.

كما أن الخطاب القرآني يوظف حججا، لكن النتائج قد يضمرها الخطاب، من قبيل: حذف جواب الشرط في الآية، للعلم به، فمن الطبيعي أن يخضع الخطاب في بُعدِه الإنجازي لجملة من المسلمات التي تكون صالحة لتحليل ظواهر الأفعال التخاطبية الصريحة والمضمرة.

الهوامش:

[1]- ينظر: السيد أحمد عبد الغفار، التفسير ومناهجه والنص وتفسيره، دار المعرفة الجامعية، مصر، دط، 2000م، ص5-6.

[2]-قدور عمران، البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2012م، ص 01.

[3]Orecchioni, l'énonciation de la subjectivité dans le langage, A.colin, Paris, p 485.

[4]-حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، إفريقيا الشرق، المغرب، (د ط)، 2004م، ص 122.

[5]-علي محمود حجي الصراف، في البراجماتية: الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، دراسة دلالية ومعجم سياقي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2010م، ص22.

[6]-المرجع نفسه، ص 11.

[7]-حسان الباهي، المرجع السابق، ص124.

[8]-محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الازاريطة، (د ط)، 2001م، ص 68.

[9]- المرجع نفسه.

[10]- خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009م، ص 96.

[11]- ينظر: محمود أحمد نحلة، المرجع السابق، ص 68.

[12]- ينظر: خليفة بوجادي، المرجع السابق، ص97.

[13]- محمود أحمد نحلة، المرجع السابق، ص 72.

[14]- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، لبنان، دط، 2003م ، 38/4، مادة (حجج).

[15]- ابن منظور، المرجع نفسه، 39/4، مادة (حجج).

المنارة للاستشارات

[16]– باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والأسلوب، عن كتاب نحو المعنى والمبنى، ترجمة: أحمد الود، دار الكتاب الجديد، ط1، 2009م، ص 16.

[17]– بلقاسم دفة، إستراتيجية الخطاب الحجاجي– دراسة تداولية في الإرسالية الإشهارية العربية– مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد 10، 2014م، ص 496.

[18]– محمد صالح العثيمين، القرآن وعلومه: أقسام الخطاب الموجه للنبي صلى الله عليه وسلم في القرآن، الإسلام سؤال وجواب :https://islamiqa.info/ar/181195 بتاريخ: 2012/07/09، على الساعة: 17:30.

[19]–المرجع نفسه.

[20] – سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت لبنان، ط 9، 1400هـ/ 1980م، 7/ 1073.

[21]– ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1984م، 196/7.

[22] –ابن عاشور،المرجع نفسه، 196/7.

[*]– والآخر: تقليل وقوع الفعل: نحو:" قد يصدق الكذوب"،" قد يجود البخيل".

[23] – سورة النور/ 64.

[24] – ابن هشام الأنصاري، جمال الدين، مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب، حققه وعلق عليه: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، راجعه: سعيد الأفغاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان،ط1، 1425هـ/ 1426هـ، 2005م، ص174.

[25] – سورة البقرة/ 44 .

[26] – الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر)، تفسير الكشاف، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، ط1، 1418هـ- 1998م، 343/1، وينظر: أبو حيان الأندلسي (أثير الدين) ، التفسير الكبير المسمى البحر المحيط، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، دط، دت، 4/ 111.

[27] – ابن عاشور، المرجع السابق، 197،198/7.

[28] – المرجع نفسه.

[29] – أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ط1، 1423هـ-2002م، 112/4.

[30] – ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 199/7.

[31] – سيد قطب، المرجع السابق، 1077/7.

[32] – سورة آل عمران/ 111

المنارة للاستشارات

[33] – ابن عاشور، المرجع السابق، 201/7.

[34] – القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، دط، دت، 6/ 326.

[35] – ابن عاشور، المرجع السابق، 202/7.

[36] – الحسن بن قاسم المرادي، الجني الداني في حروف المعاني، منشورات دار الآفاق، بيروت، لبنان، دط، دت، ص522.

[37] – سورة القدر/ الآية 5.

[38] –أبو بكر العزاوي،" اللغة والحجاج"، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، دت، ص74.

[39] – أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، 114/4.

[40] – ابن عاشور، المرجع السابق، 202/7.

[41] – ابن عاشور، المرجع نفسه،203/7، 204.

[42] – أبو حيان الأندلسي، المرجع السابق، 114،115/4.

[43]– ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 205/7.

[44]– أبو حيان الأندلسي، المرجع السابق، 116/4، وينظر: الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، دط، دت، 139/7، 140.

[45]– ينظر: الفراء، معاني القرآن، عالم الكتب، ط2، 1980م، ودار الكتب المصرية،د ط، د ت، 06/2.

[46]– ينظر: أبو بكر زروقي، لغة الحديث الشريف، دراسة في بنية الجملة الشرطية في كتابي: "الإيمان والعلم" من صحيح البخاري، منشورات الاستقامة، الجزائر، ط1، 1430هـ، 2009م، ص120.

[47] – ينظر: المرجع نفسه، ص125،124.

[48] – الإسراء/ 90.

[49] – الإسراء/ 93.

[50] – ابن عاشور، المرجع السابق، 204/7–205.

[51]– ينظر: قدور عمران، ص184.

[52]– بنعيسى عسو أزابيط، الخطاب اللساني العربي– هندسة التواصل الإضماري–(من التجريد إلى التوليد) -مستويات البنية الإضمارية وإشكالاتها الأساسية- عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2012م ، 379/2.

(*)– أي الدلالة التي تحف حول المعاني التي أرادها المخاطب.

المنارة للاستشارات

[53] – عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، جامعة منوبة، تونس، دط، 1997م، ص304.

[54] – ينظر: ابن يعيش، شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت– لبنان، ط، د ت، وإدارة الطباعة المنيرية، القاهرة- مصر، د ط، د ت، 156/8.

[55]– مازن الوعر، جملة الشرط عند النحاة والأصوليين العرب– في ضوء نظرية النحو العالمي لتشومسكي، الشركة المصرية العالمية للنشر، لو نجمان، ط1، 1999م، ص25.

[56] – المرجع نفسه.

[57] – رمضان خميس زكي الغريب، من أسرار التذييل في آيٍ من التنزيل، من الآية: 189 إلى الآية: 202 من سورة البقرة، ص09. elibrary.mediu.edu.my/books/SDL0574.pdf، بتاريخ: 2016/10/15، في الساعة: 13:00.

[58] – المرجع نفسه.

[59] – ينظر: قدور عمران، المرجع السابق، ص160.

المنارة للاستشارات